

على مبارك باشا^(١)

بقلم الأستاذ على الجارم

المفتش بوزارة المعارف

في حجرة واسعة تصان بها الكتب بدار العلوم ، يرى الداخل في أول ملتحى بصره صورة زيتية لشيخ جليل . تحف به المهابة ، وتغضى لرؤيته العيون . تلك صورة المرجوم على مبارك باشا العالم الرياضي المهندس المؤرخ الأديب .

ترونه في هذه الصورة ، وقد تجاوز الستين ، مظهره للقوة الجسمية ، ومثالا لحدة الذهن ونفوذه ، سوى الخلق ، قويم القامة ، طويلا طرمحا . وقد يما قالوا : « وإن أعزاء الرجال طياها » . عريض المنكبين ، لم تقوس الأيام قناته ، ولم يصوح الدهر نباته ، يمثل المصري الصريح في وجهه وجسمه وسمته ؛ جبين واسع يكاد يشف عما تحته من علم زاخر ، ورأى ثاقب ، كأن غضونه سطور دوتها التجارب ، وخطتها يمين الأيام وحاجبان مقرونان غزر شعرهما ، وقد وخطه الشيب ، يظلال عينيها لها نظرة تحار في تأويل معناها . وتبين مرماها ؛ فقيها الجد ، وفيها الإرادة الحكيمة المبصرة ، وفيها الطموح والاستهانة بالقليل المبذول . وأنف قويم المارن يكاد يوصف بالضخامة لولا ملاءمته بقية مظاهر وجهه . وشارب أثيت الشعر ، شمله الشيب ، تحته فم أفوه ، انفرجت شفثيه السفلى قليلا كأنما كانت تحاول الابتسام فصدتها الجد ، ودغمتها صرامة الرجولة ، فوقفت بين الإقدام والإحجام . ولحية كثة جثة ، سطع فيها صبح المشيب ، فتركها في نقاء صحف الأبرار ، ورياض أيادي الكرام .

ذلكم هو على مبارك باشا الذي سنتحدث في حياته الليلة ، وقد أغنى

- رحمه الله - الباحثين بعده عن تنسم أخبار حياته ، وتلقفها مبدلة محرفة من أفواه أهل عصره ، فكتب ترجمة حياته بقلمه إلى قبيل وفاته بخمس سنين . وقد بسط فيها القول في أحوال صباه ونشأته الأولى ، مما لم يظفر به التاريخ لغيره من عظماء الرجال . ولو أن كل عظيم سلك هذه السيل لأسدى إلى الأدب والتاريخ إرثاً مجيداً . وقد كانت سنة بعض العلماء في الأعصار الماضية أن يدونوا حياتهم بأنفسهم ، كما فعل أسامة بن منقذ وجلال الدين السيوطي . ولكن هذه السنة المحمودة لم يتفلس بها العمر ، ولم تبق عليها الأيام .

ولد المرحوم علي مبارك باشا بقرية برنال الجديدة بمديرية الدقهلية ، سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ، من أسرة اشتهرت بحفظ القرآن الكريم ، والتفقه في الدين ، فكانت فيها إمامة الصلاة والخطبة والقضاء بين الناس ؛ لذلك كانت تسمى بأسرة المشايخ ، وكان لها نصيب غير قليل من إجلال الحكم والمحكومين . ثم عصف الدهر بهذه الأسرة ، واشتد بها العسر والضيق ، فرحل أبو المترجم ، الشيخ مبارك الروجي ، بأسرته إلى الشرقية ، ثم استقر في جوار عرب السماعنة يفقههم في دينهم ، ويؤمهم في صلواتهم . ولما بلغ المترجم الخامسة أرسله أبوه إلى شيخ أعمى ليلقنه مبادئ القراءة ، ثم بعث به إلى شيخ مقيم بالقرب من مسابن العرب . وكان أبوه يزوده ما يكفيه من طعام مدة أسبوع يقيمها في كنف أستاذه الجديد . فكان يزور أهله يوم الجمعة ، ولا يعود إلى شيخه في ذلك اليوم - كما يقول - فارغ اليد خوف شره وأذاه .

بنفس ذلك الطفل وقد حمل ما حمل من قليل المتاع ، تاركاً أمه وما يلقاه في ظلها من رفق وحنان وعطف ، هو كل ما يهفو إليه الطفل في السادسة والسابعة ، إلى شيخ حطم لا يتكلم إلا بلغة العصا ، ولا يعرف

من وسائل التهذيب غير الإرهاب والتعذيب : ولقد كان ذلك المعلم عنيفاً
أشد العنف ، مخيفاً أشد الإخافة ، فما أقام على منقمة تحت حكمه سنتين ،
ختم فيهما القرآن الكريم وهو في الثامنة أو التاسعة ، حتى كره العلم والتعلم ،
وعقد العزيمة صارمة على ألا يعود إليه . وأتم ترون هذه العزيمة متجلية
في كلماته القليلة حين يقول : « ثم لكثرة ضربه لي تركته وأبيت أن أذهب
إليه بعد ذلك » . وحينما أجبره أبوه على الذهاب نوى الهرب ، فما زال به
أهله حتى صارحهم بأنه لا يود أن يكون فقيها ، ولكنه يريد أن يكون
كاتباً . فأسلمه أبوه إلى كاتب زراعة ليعلمه الخط والحساب ؛ فقام على
عنده عنتا من شظف العيش والجوع والمهانة والخدمة ، وقد حدث أن
سأله الكاتب مرة ما جُذء الواحد في الواحد . أى ما حاصل ضربهما ؟
فأجاب على متلعثما خائفاً : اثنان . وكان بيد الكاتب مقلاة فضربه بها فشج
رأسه ؛ فذهب على يشكو إلى أبيه فلم ينصفه ، فقرّ وهو في نحو التاسعة من
عمره تحت ستار الليل هائما تتقاذفه الهموم ، وتطوَّح به الأوجال ؛ وقد
أصيب في طريقه بالهيفة المعوية (الكليرا) ، فعطف عليه رجل وآواه
مدة مرضه ، حتى إذا أبلّ وعثر عليه أهله بعد البحث عنه عاد إليهم . وبعد
سنة عمل مساعداً لكاتب بمأمورية أبي كبير ، وكان راتبه خمسة وعشرين
قرشا في الشهر ، فأقام عنده ثلاثة أشهر في بؤس وضنك لا يأخذ من راتبه
شيئاً ، ولما أخذ حقه بيده من أموال حصلت لها غضب الكاتب عليه ، وأغرى
به المأمور فألقى به في السجن ، ولم ينقذه منه إلا خادم عنبر افندى مأمور
زراعة القطن بنواحي أبي بير ؛ فأقام كاتباً عند عنبر هذا براتب قدره خمسة
وسبعون قرشا في الشهر . وهو هنا يتحدثنا عما كان يحول في نفسه فيقول :
« إن الكتابة والمهية كانت هي السبب في سجنى ووضع الحديد في رقبتى ،
وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك ، فلو فعل المأمور معى مثل

ما فعل الكاتب فمن يخلصني ؟ وكانت همتي في التخلص من كل ذلك وأمثاله ، وأود أن اكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها »

وقد أخبره فراش المأمور أن سيده إنما نال تلك المنزلة لأنه تعلم بمدرسة قصر ابن العيني التي افتتحها عزيز مصر محمد علي باشا ، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس ؛ فأيقظ ذلك في نفسه آمالا نيما . فغادر عمله وهو فيه المحب المكرم وخلي ساقيه النحيلتين للريح حتى بلغ قرية منية العز فكانت - كما يقول - فألا حسناً . ودخل مكتبها ، وقد حاول أبوه أن يخرج منه ويعود به إلى تعلم الدين أو الاشتغال بالكتابة فأبى علي عليه وصمم ؛ فاهتبل أبوه فرصة خروجه وقت الظهر واختطفه ، وذهب به إلى بلدته وحبسه في الدار عشرة أيام . وهو هنا يقول : « كل ذلك ووالدتي تبكي مني وعلى ، وتستعطفني في الرجوع عما يوجب فراقهم . وتحلفني أن أرجع عن هذه النية ؛ فوعدها بالرجوع عن ذلك إرضاء لخاطرها . فأطلقوني وكانت لنا غنيمات صرت أرهاها ، وأبعدوني عن حرقة الكتابة » .

ولو أن علياً سكن إلى هذه الحياة ، واستمرأ البطالة لتغير وجه التاريخ ، ولكان على مصر أن تبحث عن علي مبارك آخر يضع نظاماً لتفاتها ، ويرسم الطريق لنهوضها العلمي .

ولكن القدر أبى إلا أن يسمو بـغلامنا الصغير ، لئن علياً أبى أن يكتفي من الحياة برعى غنيمات عجاف ؛ وكان كما كشف له في ذلك الوقت أنه سيكون راعياً للعقول ، مهذباً للنفوس ، يتنقل بها في مروج العلم . ويوردها نير الحياة الصافي . فتسر بل الليل وخرج من داره خائفاً يترقب حتى بلغ مكتب منية العز ثانية ؛ وكان أنجب تلاميذه ، فاختر مع طائفة من النجباء لمدرسة قصر ابن العيني في سنة إحدى وخمسين ومائتين والـف ، وكان عمره اثنتي عشرة سنة فأقام بهذه المدرسة سنتين لقي فيهما آلاماً وشدائد ، ثم انتقل

إلى مدرسة أبي زعبل ، وبقي بها ثلاث سنوات . ثم اختير لمدرسة الهندسة بـيولاق ، فمكث بها خمس سنين كان فيها دائماً أول فرقة . وفي سنة ستين ومائتين . وألف عزم المغفور له محمد على باشا على إرسال أنجاله إلى فرنسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب فريق من نجباء الطلبة ليسافر معهم ، وكان على مبارك من هذا الفريق ، فسافر إلى فرنسا ، وكان راتبه في البعثة خمسين ومائتي قرش في الشهر جعل نصفها لأهله . وقد درس في فرنسا الهندسة العسكرية والمدنية . وكان مفتح العينين دقيق الملاحظة ، فأفاد مصر بمشاهداته شيئاً كثيراً . وفي سنة ست وستين ومائتين وألف وعاد إلى مصر وعين مدرساً بمدرسة طرا ، وفي هذا الحين عزم على زيارة أهله ، ونحن نتركه يقص عليكم نبأ هذه الزيارة إذ يقول :

« ذهبت إلى بلدتنا برنال ، وكان أهلي قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة ، فوجدت أن أبي قد سافر إلى مصر لزيارتي ، ولم أجد في المنزل إلا والدتي وبعض اخوتي ، وكان دخولي عليهم ليلاً ، فطرقت الباب فقبل : من أنت ؟ فقلت ابنكم على مبارك . وكانت مدة مفارقتي لأمي أربع عشر سنة لم ترني فيها ولم تسمع صوتي ، فقامت مدهوشة إلى الباب وجعلت تنظر وتحد النظر ، وكنت بقيافة العسكرية الفرنسية لابساً سيفاً وكسوة تشریف ؛ وكررت السؤال حتى عرفت صوتي ، ففتحت الباب وعانقتني ووقعت مغشياً عليها ، ثم أفاقت وجعلت تبكي وتضحك وتزغرت ، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران وامتلاً المنزل ناساً ، وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب . »

وبعد هذه الزيارة اتصل بمعية المغفور له عباس باشا الأول ، وقام بأعمال هندسية كثيرة . ووضع نظاماً للمدارس الملكية تبلغ نفقاته ألف كيس . فاختره عباس الأول ناظراً للمدارس الملكية ، فقام بأعباء العمل على خير .

الوجوه مشرفا ومعلما ومرشدا ومؤلفا وطابع كتب . وكان ما أصابه في نشأته الأولى من ويلات التعليم وسوء النظام وقسوة المعلمين كان حافزا له على الإصلاح . ولما تولى المغفور له سعيد باشا عزله من نظارة المدارس ، وأمره أن يرافق الجيش إلى تركيا لمحاربة الروسيا ، فأقام هناك نحو سنتين ، قلبي فيهما شدا وبأهوالا ، وعند عودته إلى مصر فصل من الخدمة ، فسكن بيتا صغيرا ، وعاد إلى ما كان عليه أولا من الفقر والضيق ، وذهب عنه — كما يقول — ما رأى من الأموال والمناصب . ثم عاد إلى العمل ، وتنقل في مناصب كان منها أن عين معلما للضباط يلقنهم مبادئ القراءة والكتابة ، فكان يخط لهم الحروف أحيانا على الأرض وأحيانا بالفحم على البلاط ، ثم فصل ، وقد كثرت نفقاته في ذلك الوقت وأبهره الدين ، فاشتغل بالتجارة . فكان يشتري بالمزاد ما يبيعه الحكومة من عقار وأدوات وكتب ويبيعه للتجار فربح وغنم . ولما تولى المغفور له إسماعيل باشا وصله بمعيته وعينه ناظرا للقناطر الخيرية ، ثم أضاف إليه إدارة السكك الحديدية ، وإدارة المدارس ، وإدارة ديوان الأشغال ، ثم نظارة عموم الأوقاف . تلك خمسة مناصب كاملة قام فيها جميعا بضروب شتى من الإصلاح وبخاصة التعليم . فقد وضع نظاما لإصلاح المكاتب الأهلية في المدن والقرى ، وأوجد للمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كتبها ، وأنشأ دار العلوم ، وأسس بإشارة الخديوي إسماعيل باشا دار الكتب العامة ، جمع فيها نواذر الكتب ونفائسها التي كانت مفرقة في المساجد والخزائن الخاصة ، وخصص بها معرضا لآلات العلوم الطبيعية والهندسية ، وضبط الأوقاف في أنحاء القطر ، وبذل جهدا مشكورا في إحيائها وصيانتها ، واستصدر أمرا خديويا بتنظيم الشوارع ورضفها ، وتحلية المدينة بالمتنزهات والميادين . وأنشئت في أيامه ترعة إبراهيمية والإسماعيلية .

وما زال يتنقل في المناصب ، ويفصل عنها ، حتى قلد نظارة المعارف ، سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية ، واستمر عاملا بها ثلاث سنوات . وفي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف واقته المنية . فكان الحزن عليه عاما شاملا .

والوقت لا يتسع لدراسة أخلاقه الكريمة بإسهاب وتفصيل ، ولكننا نستنبط ، موجزين ، أنه كان بعيد الآمال ، قوى الإرادة ، شديد الثقة بنفسه ومواهبه ، راسخ الإيمان بالله ، رضى النفس مطمئنا ، وثابا إلى الإصلاح ، لا تفتر همته ولا تنى عزيمته ، قوى الملاحظة واسع الفكر ، خصيب الانتاج مشغوقا بالتجديد ، وكان شعاره الدقة وحسن النظام ، مجدا مشمرا فهو حركة دائمة ، وقوة دائبة ، وكان بصيرا باقدار الرجال ، بارأ بأهله ، شقيقا بالضعفاء والفقراء . وكانت داره ندوة علم وأدب للمعلمين والطلاب ، يطارحهم العلم ، ويوضح لهم السبيل .

ومن أشهر مؤلفاته الخطط التوفيقية ، وعلم الدين ، وآثار الاسلام فى المدينة والعمران ، ثم كثير من الكتب المدرسية والهندسية . رحمه الله رحمة واسعة .